الانفاس

(الى صديقي اذعار محمد ظاهر ..
شهيد أحداث لبنان والشاهد عليها)

قصة بقلم :
محمد صالح

حبك جويبر العبد الله معطفه العسكري حول جسده وخرج صافقا باب الحوش وراءه . كان المساء باردا ، والسماء مجدورة بالنجوم المتوامضة ، والظلام مطبقا لا يستطيع فيه الانسان أن يرى راحة يده . وفي جيبه الايسر ، فوق القلب تماما ، أنفاس مكبوتة تشهق ساخنة تنبض بالحياة والتحدي الصامت. حينما ترتطم بصدره المضطرب يحسها شفافة كوهج انساني مضيء ينبعث من عالم آخر .. لا محدود .

أجال بصره في الظلام فلم يشاهد سوى الوميض الحاد للنجوم وهي تلهث في هذه الكثافة السوداء ونزر ضئيل باهت من أضواء الفوانيس المنسلة من فتحات النوافذ التي لم يحكم ايصادها ، أو من صدوع الحيطان الطينية . وعبر ظلام الحقول كانت توافيه أصوات هائمة تغتصب صمت الليل ، تبين منها نباح كلاب ونقيق ضفادع وحلجلة صراصر ثاقبة ، وثمة غراب بلون الظلام ينعق ثاقبا فوق رأسه ، لا يلبث نقيقه المأتمي أن يذوب في الظلمة الشاسعة فيحلّ صمت متشنج عميق ، فيتحسس صدره المضطرب ويتابع مسيره .

كانت الانفاس تخفق هادئة وأليفه في جيبه الايسر . ضغط على زر اضاءة المصباح اليدوي فانفرد الضوء الاصفر على سطح من الحقول المنتشرة . رسم في الضوء نصف دائرة أمامه فمرت سريعا على حقول متجاورة زاهية الخضرة ، تنفرش كبساط من الصوف الملون على امتداد الضوء المنتشر ، تتخللها أشجار سامقة من الصفصاف والتوت واليوكالبتس ، وثمة بساتين منتشرة قد لا تستوعبها مساحة الضوء الا انها تبدو في الظلمة كأشباح ليلية غارقة في الصمت . وبين الحقول ، مخترقا تشابك الاشجار الشجية ، يبدو الطريق الترابي متلويا أكثر وضوحا من عتمة الحقول والادغال التي تحفّ به من كلا الجانبين .

حين لوى مقدمة المصباح الى الاعلى لم ير الغراب في الجو مع ان نقيقه المأتمي ظل يخترق السكون بين لحظة وأخرى وباصرار عنيد .

انصرف الى تأمل عمود الضوء وهو يمتد عاليا في كنف الظلام الحالك . انهدم العمود الضوئي بحركة سريعة من يده فعاد الى الانتشار في الحقول . وحين انعطف معقبا الطريق الضيق انفرش الضوء على الباب المعدني المثبت بمسامير على ألواح من الخشب متناسقة.

قرع الباب برؤوس أصابعه ، وقبل أن يتلقى جوابا دخل الحوش . هرّ الكلب الرابض عند باب الغرفة الطينية الواطئة والذي على ما يبدو قد بهره الضوء ، ضاربا ذيله الرافل بالشعر المبقع على الارض ، ومثبتا أذنيه باصغاءة لا تخلو من استغراب دون أن يفارق مكانه . انفرج باب الغرفة بتأن فأطل منه وجه فتاة يغمره الظل ، مع ان تقاطيعه كانت واضحة المعالم الى حد ما . خمن انها في حدود العشرين ان لم تكن أقل. كانت تعصب رأسها بوشاح أسود مطرز بالشناشيل المذهبة والاصداف الفضية وخرز النمنم ، وعلى صدرها الثري ينسدل ملفع أبيض منقوش على شكل دوائر ومربعات متناسقة الابعاد بالحرير الملون . كانت تلف جسدها الذي بدا متماثلا الى الامتلاء بمعطف نسائي من قماش القطيفة .

فتحت الباب على اتساعه فولج الغرفة مصارعا ارتباكه ، وفي أنفه تنحشر رائحة الدخان المنبعثة من جوف الموقد . تساءلت العجوز بوجه مقطب ، رافعة رأسها دون أن تغير من وضع جلستها المكبوبة على الموقد ، فيما توقفت أصابعها على أسقاط خرزات المسبحة الحجازية الطويلة .

ـ من ؟!...

أجاب بصوت مرتفع :

ـ مساء الخير يا أم فارس . أنا جويبر .

بدا السرور جليا على الوجه الاثري القميء وهي تجيب :

ـ أهلا ومرحبا . خطوة عزيزة . يا فاطمة ، هاتي فراشا من فراش فارس . فراش نظيف لجويبر .

ـ الجودلية تكفي .

أصرّت بالحاح :

ـ يا فاطمة اسرعي .

فرشت فاطمة البساط الصوفي وفوقه رمت

الوسائد النظيفة ، ثم قابلته واقفة وفي نظراتها المستفسرة شيء من الذعر المبهم ، أو الخجل الريفي المذعور أبدا في حضرة كل غريب .

وحين خلع حذاءه وجلس ، جلست على الارض الى جانب الموقد الذي بدت ناره حمراء باهتة الى جانب ضوء الفانوس المعلق في الوتد الخشبي القائم في منتصف الغرفة . استطاع أن يتفرس بامعان في وجه فاطمة على ضوء الفانوس المقابل . جميلة ، تحمل سمرة نساء الحقول الضاربة الى حمرة شفافة كئيبة . حادة الملامح . خدّاها طريان . دقيقة الانف . في نظراتها الهادئة شيء من التوجس والريبة . أما الفم فأقرب ما يكون الى المنبسط ، متناسق الشفتين ، في حين اختبأ الحنك تحت طرف الملفع الذي حصر الوجه ضمن حدود دائرية ، بيضاء من الاسفل وسوداء من الاعلى ، فبدا أكثر تألقا واضاءة .

ـ اعملي لنا شايا يا فاطمة . الضيف عزيز .

لم يعترض على الشاي ، مع انه لم يكن يرغب فيه. كان يبحث عن بداية مناسبة للدخول على نحو مقبول وغير مباشر الى ما يريد أن يقول ، فلم يفلح . كل البدايات سيئة وقاسية ، فمضى يحملق كيفما اتفق في أرجاء الغرفة الطينية المسقوفة بحصران البردي المجردة من الالياف ، وأغصان الاشجار وسعف النخيل ، والى الجدران المملوجة بالوحل الحري ، والى نضد الملابس المرتفع قليلا عن الارض ، والى الارجوحة الصوفية المثبت أحد طرفيها بنافذة صغيرة ، فيما ثبت الطرف الثاني في الوتد الخشبي القائم في منتصف الغرفة ، حيث تدلى من ذات المسمار الفانوس الزيتي الذي يبعث ضوءا برتقاليا قاتما ، لا يكاد يضيء الغرفة بأكملها على الرغم من صغر حجمها . في حين تقابل الفانوس الى زاوية الجدار المتعرج صورة شمسية مكبرة لرجل غاضب في زي عسكري يعتمر بيريه سوداء في مقدمتها لطخة نحاسية مفلطحة وعلى صدره ثبت وسام منفرد : وجه ريفي صارم ، مغبر ، لم تخف رتوشات الصورة سمرته الفاحمة وملامحه القاسية الناضحة بأتعاب خفية ، وعينان ضيقتان تلتمعان بنفاذ عدائي لهما بريق صاف ، يبدو أكثر صفاء وهو ينعكس على ضوء الفانوس الخافت، وأنف يميل الى الضخامة ، يجثم هادئا على شارب غزير. ينام الشارب بدوره على الشفة العليا ويرتمي من كلا الجانبين حتى يكاد يلامس طرفي الحنك المستقيم . ينظر مباشرة الى الامام كما لو انه يريد أن يقول شيئا ما.. يفضح سرا ما . وكانت الصورة موشاة باطار من القماش الكتان المتهرىء وقد تصدعت الزجاجة بخطوط متعرجة ، كجروح عميقة ، تمتد على الوجه الصارم ، بيد انها ظلت متماسكة بفعل قماش الكتان الذي رجح انه قد يكون ملصقا بالعجين الجاف ، وما برحت وراء جروح الزجاج العميقة تلك النظرات الواخزة المتحدية تنظر الى الامام مباشرة . وكما لو ان العجوز لاحظت هذا الصمت المشحون ، فهمست باعتزاز :

ـ ألم تعلم ان فارسا جاءه ولد ؟

انتبه جويبر الى نفسه فدمدم بين أسنانه :

ـ سمعت بذلك . سيكون كأبيه رجلا حقيقيا يستحق الاحترام .

نظر خفية الى فاطمة التي ارتسمت على وجهها القمحي ابتسامة نصفية منحرفة . قالت العجوز :

ـ لا أعتقد اني سأراه وقد اكتمل ..

ـ الاعمار بيد الله يا عمة .

قالت وقد أضفى طابع الحزن التقليدي على صوتها الاجش :

ـ المرض يا جويبر . المرض في آخر العمر شيء لا يطاق . يتمنى الانسان أن يموت على أن يظل عالة على الآخرين . يستجدي رحمة الناس . لم أعد أقوى على الوضوء الا بصعوبة ، فكيف الحال بعد خمس أو ست سنوات ؟ الحالة تسوء . أمثالنا ليس أمامهم سوى الموت .

كان جويبر مقتنعا بهذا تمام الاقتناع ، الا انه قال مواسيا :

ـ الامل موجود يا أم فارس .

وكأنها لم تسمعه فمضت تقول :

ـ وفوق هذا لم أعد أرى كما يجب . لو لم تقترب مني لما عرفتك . بعد سنتين على الاكثر سأكف تماما عن الرؤية . العمى شيء مؤلم لامرأة مريضة مثلي . الموت أحسن .

قال متذمرا :

ـ لا تفكري هكذا يا أم فارس . الامل موجود . المهم أن لا تفكري هكذا .

غيّرت مجرى الحديث بتعمد وقد اختلقت ابتسامة باهتة أضفت على جبينها المحزز وخديها الذابلين الكثير من الاخاديد العميقة :

ـ بعثنا رسالة الى فارس أخبرناه فيها بالمولود .

اتسعت ابتسامتها وهي تكمل :

ـ قلنا له بالرسالة انه يشبهك الى أبعد الحدود . غاضب دائما لا يكف عن الصراخ. أسميناه صلاح الدين. هو الذي أوصى بهذا الاسم قبل أن يسافر .

تساءلت بسرور صبياني :

ـ هل ستصل الرسالة يا جويبر ؟

ـ طبعا ستصل وسيفرح بذلك كثيرا .

اتسعت ابتسامتها التي أصبحت الآن طبيعية حتى تجعد الوجه القميء ، غير انها لم تلبث أن عادت الى حالة الاكتئاب وقد تشنجت أصابعها على خرزات المسبحة الحجازية الطويلة هامسة كما لو انها تحدث نفسها :

ـ منذ فترة طويلة لم يبعث لنا برسالة . لم تنقطع رسائله من قبل .

قال مغتصبا من تجهم وجهه ابتسامة متكلفة :

ـ لا شك انها ظروف الحرب .

قالت مكتئبة :

ـ قلبي يا جويبر يحدثني سوءا.. ايه ، لا تلمني. ليس لي سواه .

حاول أن يقول شيئا . تململ في مكانه باحراج . زاغ ببصره مبتعدا عن وجه فاطمة المحاط بهالة الملفع والكيش . تعثر وهو يجوس بلا اتجاه معين على الارض المتربة المسوحة بالضوء القاتم ، وعلى رماد الموقد المنبعث من جوفه خيط من الدخان الفوسفوري قبل أن ينطفىء على الدوائر الملونة المنقوشة على بساط فارس النظيف ، في حين مضت هي تهمس وقد اكفهرّ وجهها المدور النحيل ، وذات الغضون المتعرجة على ضوء الفانوس الذي راح يتكتك خابطا وهجه القاتم على الوجوه الثلاثة المتقابلة بتصلب :

ـ البارحة حلمت . رأيت فارسا . كان شاحبا، ومقهورا . استقبلته بلهفة . احتضنته باكية . قلت له يا ولدي العزيز هل تبخل على أمك المريضة التي تنتظرك برسالة ، أو مجرد توصية تطمئنها عليك . ليتك لم تذهب يا ولدي . أتدري بماذا أجابني يا جويبر ؟

تنحنح بضيق وهبط ببصره مرة أخرى الى الاسفل . كان الكتلي يفلي وفاطمة تهيىء الاستكانات ، وكان رماد الموقد باهتا ..

ـ قال لي ، ليتني لم أعد يا أمي ..

انتبه جويبر بذعر . رفعت فاطمة بصرها فبدا بريق عينيها الواسعتين لامعا ، وبهدوء لا متوقع تناولت الكتلي ومضت تملأ الاستكانات بالسائل الاحمر ، واحدة تلو الاخرى . أضافت بصوت واهن :

ـ ثم رمى رأسه على كتفي وبكى . لا أدري لماذا بكى فارس ؟ سألته فلم يجب .

تناول الاستكانة من يد فاطمة وأذاب السكر بداخلها مستمعا الى رنين الزجاج الصقيل حين ترتطم به ملعقة الالمنيوم الصغيرة ، فيبدو عبر السائل مكتوما كنواح امرأة ثكلى أتعبها الانتظار . ضائعة في ذعرها الابدي ، مدفونة في ظلمة الحقول الموحشة .

ارتشف قليلا ثم أعاد الاستكانة الى مكانها متصنعا الهدوء . همّ أن يقول شيئا لكنه لم يجد ما يقوله ، أو بالاحرى ليس هناك ما يقال . لقد قال فارس الكثير. بل قال كل شيء من غير أن يلتفت وراءه . كانت فاطمة تسترق النظر المتفحص نحوه خفية ، والعجوز بأكملها كعاهة شاذة في هذا الوجود القلق ، مكوّمة باهمال خرقة بالية الى جانب الموقد . منظر وجهها الاثري المجعد مهيأ لاستيعاب هموم العالم بأسره بما فيه من كآبة واستلاب .

ـ هل ستنتهي الحرب عن قريب يا جويبر ؟

كرع ما تبقى من الاستكانة دفعة واحدة ، وامتنع برغم الحاح فاطمة عن قبول الثانية . كانت ببصرها الحاد ، المندهش ، تلاحظ ارتباكه ، وربما تقرأ على وجهه كل ما يدور بذهنه فيود من أعماقه لو انه لم يأت ، لو كلف غيره بالمجيء الى هنا ، لو انه لا يعرف هذه القرية على الاطلاق ، أو على الاقل لا يعرف هذه العجوز الهرمة ، نصف الميتة . أحسّ بألم ساخن يرتفع كتصاعد السحب الشتائية لتمسح وجه السماء الراكد . تنهض من أعماقه المظلمة .

ـ متى يعود فارس برأيك يا جويبر ؟

تأمل وجه فاطمة ذا السمرة المشربة بحمرة خفيفة. غاص في دفء عينيها المذعورتين . تبلد العالم برأسه . التصق اللسان باللثة . حاول انتزاعه فلم يقو على ذلك. تساءل من أين يبدأ ؟ ولم تكن في هذا الصمت الكئيب بداية . سمعها تتساءل باستغراب :

ـ لماذا لا تجيب يا جويبر ؟

أحسّ بثقل جيبه الايسر يرجح على كل جسده . ذاب بحرارة الانفاس المؤنسة النابضة بحسّ الحياة . حمل بصره على الاختباء في غضب الصورة الشمسية المكبرة محملقا بذهول بليد مستغيث في الوجه الاليف الصامت ، الغارق في صمته .

دوت في السكون الراكد صرخة ثاقبة مفزعة ملأت فضاء الغرفة المخنوقة بدخان الموقد وضوء الفانوس المعتم والانفاس الساخنة .

تركت فاطمة كل شيء في مكانه ونهضت بقلق ، كما لو انها فوجئت بطعنة خنجر غادر من الخلف . رآها تنحني على الارجوحة . تركع بتلعثم لا يخلو من سخط الى جانبها العاجّ بدوي الصرخة المطوطة ، غير المتوقعة ، وتزيح الملفع الابيض ، طارحة زاويته المستطيلة على كتفها فينسدل متموجا على ردفيها المكتنزين المختبئين تحت المعطف القطيفي محاذرة قدر الامكان أن لا يكون صدرها المنقوش بالوشم الازرق مرئيا .

استحال الصراخ العنيف الى نحيب محشرج متقطع ، ثم الى نقنقة مكتومة كاستغاثات مبهمة لكائن انساني يذوب ذعرا في ظلمة الخارج الحالكة .

وكانت فاطمة مرتبكة وهي تحاول جاثية أن تحشر الثدي حشرا في فم الصغير صلاح الدين الذي صمت الآن ، وصمتت العجوز المكبوبة الى جانب الموقد أيضا . صمت كل شيء في الداخل المعتم المخنوق بكثافة الدخان .

آثر أن يستكين لائذا في هذا الصمت المريح . وافاه من الخارج نعيق غراب ضال يرتحل في الظلام الذي توقعه أكثر سوادا من أن يخترقه ضوء المصباح اليدوي ، وفكر بأن العودة لا بد أن تكون صعبة . تلاشى الصوت الناعق وعاد الصمت المثقل بالانفاس الساخنة الى الهيمنة الثقيلة على الغرفة الطينية المعتمة من جديد.

الشرقاط (العراق)